البابُ الأول

مفاهيم عامَّة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مفهوم الأخلاق ومكانتها في الإسلام

المبحث الأول: مفهوم الأخلاق وأخلاقيات المهنة

الخُلُق لغة: في القاموس المحيط: «الخلق بالضم وبضمتين السَّجيَّة، والطبع، والمروءة، والدِّين»[١].

واصطلاحاً: صفة مستقرة في النفس ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة[٢].

والأخلاق هي: مجموعة القواعد والمبادئ المجردة، التي يخضع لها الإنسان في تصرفاته، ويحتكم إليها في تقييم سلوكه، وتوصف بالحسن أو بالقبح[٣].

فالخلق صفة مستقرة لا عارضة؛ لأن الإنسان قد يتلبس ببعض الصفات غير الثابتة لموقف معيَّن، كالكرم، أو الخوف، أو الغضب، أو غير ذلك، في حين أنه إذا رؤي في الأحوال العادية تظهر منه الصفات الحقيقية التي قد تخالف هذه الصفات.

وهذه الصفة المستقرة لها آثار سلوكية، فالسلوك ليس هو الخلق، بل هو أثره وشكله الظاهر.

فسلوك الإنسان وتصرفاته يدلان على خلقه غالباً، وإنما قلت غالباً لأن الإنسان قد يصدر منه تصرفات في حالات طارئة لا تدل على خلقه وسأذكر هذه الحالات بعد مبحثين ولذا فإن الشرع المطهر يربط الحكم على الشخص من خلال سلوكه، كما قال ﷺ: (إذا

(٢) الميداني: عبدالرحمن حسن حبنكة/الأخلاق الإسلامية وأسسها (١٠/١) وانظر تعريفات أخرى لابن مسكويه (تهذيب الأخلاق: ٢٥) وجالينوس (تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك للماوردي: ١٠١ - بتحقيق رضوان السيد) والمسؤولية الخلقية والجزاء عليها للدكتور أحمد الحليبي (١٧ - ٢٠).

(٣) انظر: (بدران، أمية، ١٩٨١م، مدى انطباق الحكم الأخلاقي على طلبة المرحلتين الإعدادية والثانوية في الأردن، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، ص٣٠٣).

(١) رواه الترمذي (٢٧٧/٥) وحسَّنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

obeikandl.com

رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)[١] فمن خلال سلوكه الظاهر حُكِم عليه بالإيمان الباطن.

وبعد ذكر تعريف الأخلاق، نستطيع أن نعرِّف **أخلاق العمل** بأنها:

المبادئ التي تعدّ أساساً للسلوك المطلوب لأفراد المهنة، والمعايير التي تعتمد عليها المنظمة في تقييم أدائهم إيجاباً وسلباً[٢].

«فلكل مهنة من المهن قيم، ومبادئ، ومعايير أخلاقية، ومعرفة علمية، وأساليب، ومهارات فنية، تحكم عمليات المهنة وتحدد ضوابطها، وللمهنة مجالات متعددة ووظائف معينة، وقد تتداخل مجالات المهنة ووظيفتها ومادتها العلمية ومهاراتها وأساليبها الفنية مع مهن أخرى، وتعد دراسة فلكسنر (Flexner) عام ١٩١٥م أقدم دراسة في مجال المهن، وقد توصلت إلى معايير عدة، منها أن يكون للمهنة قواعد أخلاقية تحكم عملياتها»[٣].

المبحث الثاني: مكانة الأخلاق في الإسلام

تتضح مكانة الأخلاق في الإسلام من خلال عدة أمور:

الأول: كثرة النصوص الواردة فيها في الكتاب والسنة: ففي القرآن الكريم أكثر من (٣٠٠) آية تتحدث عن الفضائل الخلقية صراحةً[٤]، هذا سوى الآيات الكريمة التي تعرضت للأخلاق في ثنايا القصص القرآنية، والأحكام الشرعية.

---

(٢) انظر بعض التعريفات في: العثيمين/أخلاقيات الإدارة في الوظيفة العامة، ص ٤٢. والسعدان/ورقة مقدمة لندوة «أخلاقيات العمل في القطاعين الحكومي والأهلي» المنعقدة في معهد الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية - الرياض يوم الثلاثاء ١٤٢٦/١/٢٠ هـ الموافق ٢٠٠٥/٣/١م، بعنوان «أخلاقيات العمل وتجربة ديوان المظالم في الرقابة عليها» من إعداد الشيخ عبدالله بن حمد السعدان.

(٣) الغامدي والدهيش/ورقة مقدمة لندوة «أخلاقيات العمل في القطاعين الحكومي والأهلي» المنعقدة في معهد الإدارة العامة في المملكة العربية السعودية - الرياض يوم الثلاثاء ١٤٢٦/١/٢٠ هـ الموافق ٢٠٠٥/٣/١م بعنوان أخلاقيات مهنة التعليم وسبل تعزيزها في نظام التعليم السعودي من إعداد أ. د حمدان أحمد الغامدي، ود. خالد بن عبد الله بن دهيش.

(٤) انظر: تفصيل آيات القرآن الحكيم لجول لابوم بترجمة محمد فؤاد عبدالباقي صفحة (٣٨٥) ودستور الأخلاق في القرآن لمحمد عبدالله دراز (٦٩١ - ٧٧٨).

(١) انظر: كنز العمال للمتقي الهندي (٣/٣ - ٤٤٠).

مثل قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]، وهو خلق الإحسان إلى الناس بلا مقابل مادي.

وقوله سبحانه في قصة يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] وهو خلق العفو، وغير ذلك كثير.

وفي السنة الشريفة أكثر من ٢٢٠٠ حديث في الفضائل الخلقية[١].

الثاني: المنزلة العظيمة التي جعلت لها في ميزان الإسلام: حيث مدح بها النبي ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وأمر بها المؤمنون في القرآن الكريم أمراً ملزماً لا مخيَّراً أو مستحباً، فالأخلاق الحسنة مأمورٌ بها، والأخلاق السيئة منهيٌّ عنها، وأمثلة ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وجعل النبي ﷺ أعلى درجة في الجنة لمن حسُن خلقه[٢]، وبيَّن ﷺ أن رسالته جاءت لتكمِّل مكارم الأخلاق، فقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٣]، وهذا الحصر (إنما) تأكيد على مكانة الأخلاق في رسالة الإسلام.

وبيَّن ﷺ أن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلُقاً[٤] وبيَّن ﷺ أن أثقل شيء في ميزان الأعمال يوم القيامة الخلق الحسن[٥].

الثالث: جعل الشارع الكريم الأخلاق هدفاً من أهداف أركان الإسلام العبادية..

---

(٢) رواه أبو داود (٤/٢٥٣) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) رواه البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه بسند صحيح (مجمع الزوائد: (٩/١٥)، وروواه أحمد (٢/٣٨١) والحاكم (٢/٦٧٠) وصححه بلفظ «صالح الأخلاق».

(٤) رواه أبو داود (٤/٢٢٠) والترمذي (٣/٤٦٦) وصححه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه أبو داود (٤/٢٥٣) والترمذي (٤/٣٦٢) وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(١) رواه البخاري (الصوم/من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم – ١٨٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والزكاة تطهِّر النفس من الشحّ والكبر: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصيام يعصم المسلم من لغو الحديث: (من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)(١)

والحجّ يربي المسلم على ترك الجدال والأخلاق الرذيلة: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧].

الرابع: الوعيد الشديد لمن ترك شيئاً منها: وعلى سبيل المثال جعل القرآن الكريم المتكبر مبغوضاً لله في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦]، وخائن الأمانة مبغوضٌ من الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٧] ومن يسعى في نشر الفاحشة ليفسد أخلاق المؤمنين له عذاب أليم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩]، وغير ذلك...

وفي السنة النبوية سمَّى النبي ﷺ صاحب الخلق السيء منافقاً في قوله: (آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان)(٢).

وشهد للمرأة التي تؤذي جيرانها بأنها في النار(٣).

الخامس: اهتمام علماء الشريعة بها: فقد اهتم علماء الشريعة بالأخلاق منذ العصر الأول الهجري، حين كانوا يحرصون على الالتزام بالأخلاق الإسلامية، ويحثون الناس على الالتزام بها.

---

(٢) متفق عليه (البخاري: الإيمان/علامة المنافق – ٣٣، مسلم: الإيمان/خصال المنافق – ٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه ابن حبان (٧٦/١٣) والحاكم (١٨٣/٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) ابن الجوزي/عبدالرحمن: صفة الصفوة (٢٥٨/١).

كما جاء عن أبي بكر الصدِّيقرضي الله عنه أنه كان يحلب للحي أغنامهم، فلما ولي الخلافة قالت جارية منهم: الآن لا يحلب لنا منايح الغنم. فسمعها أبو بكر، فقال: «بلى لعمري لأحلبنها لكم»[١].

وورد عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقوم بنفسه برعاية امرأة عجوز في المدينة لا كافل لها، واستمر على ذلك حتى بعد خلافته[٢].

وقال عمر: «لا تغرني صلاة امرئ ولا صومه، من شاء صام ومن شاء صلى، لا دين لمن لا أمانة له»[٣].

وورد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما حين سئل عن الذي يختلف كلامه أمام الناس عن كلامه في خلوته، فقال: «كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٤] -أي: أنه يجب الالتزام بالصدق في كل حال-.

ويبرز اهتمام علماء الإسلام بالأخلاق من خلال الكتب التي ألفوها في الأخلاق الإسلامية، ككتب الأخلاق عموماً، والكتب التي ألفت في خلق معيَّن، فمن الكتب التي ألفت في الأخلاق:

- الأدب المفرد للإمام البخاري
- أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وآدابه لأبي الشيخ الأصبهاني
- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه
- الأخلاق لابن حزم
- أخلاق الطبيب للرازي

(٢) ابن الجوزي/عبدالرحمن: صفة الصفوة (١/٢٨١).

(٣) رواه البيهقي والبغوي والخرائطي عن هشام بن عروة عن عمر. (مكارم الأخلاق للخرائطي: ١/١٦٨ رقم: ١٤٦٠).

(٤) رواه البخاري (الأحكام/ما يكره من ثناء السلطان وإذا خرج قال غير ذلك - ٦٧٥٦).

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات بتحقيق محمد سيد كيلاني: صفحة ٤١٨، نشر دار المعرفة.

openkandil.com

- أخلاق العلماء للآجري
- الآداب للبيهقي
- مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا
- مكارم الأخلاق ومعاليها للخرائطي
- مساوئ الأخلاق للخرائطي
- أدب الدنيا والدين للماوردي
- رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي
- أخلاق الأبرار للغزالي
- الأخلاق للراغب الأصفهاني
- الآداب الشرعية والمنح المرعية للمقدسي

ومن الكتب التي أُلِّفت في أخلاق مخصوصة:

- التواضع لابن أبي الدنيا
- الصمت وحفظ اللسان لابن أبي الدنيا
- مداراة الناس لابن أبي الدنيا
- الحلم لابن أبي الدنيا
- البر والصلة لابن الجوزي
- القناعة لابن السني
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم

obeikandl.com

ومن الكتب التي أُلِّفت في أخلاق الساسة والملوك استقلالاً أو ضمناً:

- الأحكام السلطانية للماوردي
- الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى الحنبلي
- التبر المسبوك في أخلاق الملوك للغزالي
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المَلك وسياسة المُلك للماوردي
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية

هذه نماذج من الكتب التراثية، أما الكتب الحديثة فهي كثيرة جداً في الموضوع. وكل ذلك يدل على أهمية موضوع الأخلاق ومكانته عند المسلمين.

المبحث الثالث: الفرق بين القيم والأخلاق:

القِيَم لغة: القيمة بالكسر واحدة القيم، وفي مفردات الراغب: «تقويم السلعة بيان قيمتها»[١].

وفي معجم الأخطاء الشائعة: «ويخطِّئون من يقول: قيَّموا الدار، أي: جعلوا لها قيمة معلومة.

والصواب: قوموها تقويماً؛ لأن الفعل واوي. وقد جاء في المعجم الوسيط: قيَّم الشيء تقييماً: قدر قيمته.

ويقولون: عقد اللؤلؤ هذا قيِّم. والصواب: نفيس، أو ذو قيمة عالية. لأن القيم في اللغة هو المستقيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣]، أي مستقيمة تبين الحق من الباطل»[٢].

القِيَم اصطلاحاً: «أما المعنى الاصطلاحي للقيمة فقد تعددت بتعدد مجالات استخدامها في النشاطات الإنسانية، وإن كل معنى من هذه المعاني يتخذ خاصية المعيار للمجال الذي استخدم فيه، وهكذا ظهرت نظرية القيم أو علم القيم (Axiology). ويُعزى

---

(٢) العدناني/محمد: معجم الأخطاء الشائعة: صفحة ٢١٢، نشر مكتبة لبنان ١٩٨٣ م.

(١) نقلاً عن: الغامدي والدهيش (مرجع سابق) وهو تعريف يتميز بالشمول والوضوح.

obeikandl.com

ظهور هذا المفهوم إلى الفيلسوف الألماني «نيتشه» وتنحصر وظيفة هذه النظرية في القيام بتحليل طبيعة القيم وأنواعها ومعاييرها وتُعتبر وثيقة الصلة بكثير من العلوم ومنها الأخلاق»[١].

القيم في المدرسة الفلسفية المثالية:

تعود فكرة هذه المدرسة إلى أفلاطون (٤٢٧ ق. م - ٣٤٧ق. م)، ويجمع عالم القيم المثالي مثلث أفلاطون المعروف: الحق، الخير، الجمال، وظلت القيم المأخوذة من هذه المدرسة وما زالت قديماً وحديثاً مصدراً لأهداف التربية وصياغة ما يُطلق عليه التربية الأخلاقية «Moral Education» وانعكس ذلك على العملية التعليمية والتربوية بهدف تمكين القيم من المتعلم بحيث تكون بمنزلة الضابط والموجه لسلوكه. (أرسطو، ١٩٢٤).

القيم في المدرسة الفلسفية الواقعية:

فكرة هذه المدرسة عكس المدرسة المثالية من حيث وضع القيم، فهي تعتبر القيم الخالدة مستمرة وثابتة وعامة، بمعنى أن القيم من وجهة نظر هذه المدرسة في بدايتها معايير خلقية تحكم حركة الإنسان في عمومه، وترجع بداية هذا التطور الحديث للمدرسة الواقعية منذ أن بدأ «كانت» (١٨٠٤ - ١٧٢٤م) النظر إلى القانون الأخلاقي على أنه من مدلولات العقل، والقيم مُثلٌ عُليا وغايات إنسانية توجه مسيرة الحياة وتعتبر أحد مقومات الوجود الإنساني (Kant, ١٩٦٥).

القيم في المدرسة الفلسفية البرجماتية:

تعتبر هذه المدرسة في جوهرها نظرية «القيم»، حيث تعتبر السلوك الإنساني تجاه الأشياء هو الذي يحدد قيمتها بمعنى أنه لا توجد للقيم طبيعة مطلقة، لذلك احتلت قيمة «العمل» مكانة مهمة في نظرية القيم عند دعاة هذه المدرسة، ومن ثم فإن القيم وسائل لتوضيح الأفكار، أو أدوات للوصول إلى الحقيقة، ويتزعم هذه المدرسة جون ديوي (١٩٥٢ - ١٨٥٩م) الذي يعتبر فيلسوف ومطور هذه المدرسة. (فينكس، ١٩٦٥).

(١) انظر: الغامدي والدهيش/مرجع سابق.

القيم من منظور إسلامي:

القيم في الفكر الإسلامي تختلف عن غيرها في الفلسفات السابقة، فهي ليست من نتاج الفكر البشري، وإنما تعتمد في أساسها على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما أن القيم في الإسلام تنزع إلى الشمول، فالدين الإسلامي لم يأت خاصاً بأمة دون أخرى بل هو للناس كافة، أما ميدان تطبيقه فهو شامل في قواعده وتشريعاته جميع نواحي الحياة الدنيا والآخرة، وقد كونت مبادئ الإسلام وقيمه نظاماً اجتماعياً له قيمه ومعاييره والتي تمثلت في العلم، والعمل، والتقوى، والعدل. فقيمة العمل تأتي في مقدمة القيم ولم تكن مكانتها أقل من قيمة العلم، وإنما هي مرتبطة بها، أما قيمة التقوى فهي تمثل ركيزة أساسية لقيمة العمل، والتقوى بمنزلة المعيار الذي يُقاس العمل به وهي ترمز في الشريعة الإسلامية إلى صون الإنسان نفسه من القيام بأفعال يجب المعاقبة عليها، أو ترك أفعال يُعاقب على تركها. أما قيمة العدل في الإسلام فذات مضمون اجتماعي، ويضع المفكرون من المسلمين قيمة العدل على رأس قائمة المبادئ، وقيمة العدل تطبق على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع (عبد الراضي، ١٩٩٢م).

والقيم في الإسلام هي فضائل خلقية، وهي المعيار لسلوك أفراد المجتمع عامة، وأرباب المهن خاصة، فالدين الإسلامي بمنزلة المعيار الذي على أساسه تُحدد قيمة أخلاقية العمل، فجميع المسلمين تقوّم أعمالهم في إطار غايات وأهداف الدين الإسلامي الحنيف، والمسلم الملتزم ذو أخلاق إسلامية، يخشى الله ويلتزم بالقيم التي حث عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[١].

المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في السلوك الأخلاقي:

سلوك الإنسان الأخلاقي يتأثر بعدة مؤثرات إيجابية وسلبية، داخلية وخارجية، ويصل تأثير هذه المؤثرات إلى أن تطغى على خلقه الأساسي، حتى يصبح السلوك الجديد له خُلُقاً وطبعاً، وقد قال ﷺ: (ومن يتصبَّر يصبِّره الله)[٢]، وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنما العلم

(٢) رواه البخاري (الزكاة/الاستعفاف عن المسألة – ١٤٠٠) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١) رواه البيهقي/ شعب الإيمان: (٣٩٧/٧).

openkangri.com

بالتعلُّم، وإنما الحلم بالتحلُّم»(١)، وهذا الحديث والأثر دليلان على أن الإنسان يستطيع أن يتخلق بالأخلاق الحسنة إذا عزم على ذلك وأعانه الله سبحانه وتعالى.

وليس من الصحيح أن يقول أحد إن الإنسان المفطور على خلق معين لا يستطيع الانفكاك عنه، بل يستطيع من خلال المجاهدة والعوامل الآتية أن يغيِّر من خلقه إلى الأفضل، ولعل هذا أحد التفسيرات الجيدة لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فمدلول النفس في قوله: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يوحي بالصفات الداخلية لا الخارجية، أي أن الأخلاق التي هي في الحقيقة صفات نفسية يمكن بل يطلب تغييرها إلى الأفضل حتى يغيِّر الله واقع الإنسان والمجتمع والأمة.

وأتناول فيما يلي أهم هذه العوامل المغيِّرة:

العامل الأول: الإيمان والتوحيد:

لا شكّ أن المحرك الأول للأخلاق الحسنة هو الإيمان والتوحيد؛ لأنه يربط الإنسان بخالقه عزوجل، فيورثه خلق التواضع عندما يتذكر عظمة الله تعالى وضعف الإنسان، ولذا قيل: من عرف نفسه فقد عرف ربَّه(٢)، وقيل: إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك.

ويورثه خلق الرحمة؛ لأنها صفة الله تعالى، ويحب أن يتخلق بها ليرحمه الله فإن الله يرحم من عباده الرحماء(٣)، وابتداء القرآن كل سورةٍ من سوره بهاتين الصفتين: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ يرسِّخ خلق الرحمة عند المسلم.

ويورثه خلق العدل؛ لأن الله تعالى عادلٌ لا يحب الظالمين؛ ولأن الظلم مرتعه وخيم يوم القيامة، ولا يعي ذلك إلا من يؤمن باليوم الآخر،

---

(٢) من عرف ضعف نفسه وحاجتها وأنه مستحق لوصف العبودية، عرف غنى الله تعالى وقوته وأنه مستحق لوصف الألوهية.

(٣) متفق عليه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه. (البخاري: الجنائز/قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه - ١٢٢٤، مسلم: الجنائز/البكاء على الميت - ٩٢٣).

(١) الجليل/عبدالعزيز وعقيل/بهاء الدين: أين نحن من أخلاق السلف (صفحة ١١٣).

opeikandi.com

ويورثه خلق التجرد فلا يعمل العمل الصالح رجاء السمعة والمصلحة، بل يبتغي بذلك رضى مولاه سبحانه؛ ولأن المرائين والمنافقين يوم القيامة يجعل ما عملوا هباء منثوراً، ثم يعذَّبون، فيخاف المسلم من المراءاة والنفاق.

ويورثه خلق الإحسان إلى الآخرين، ليجد جزاء ذلك يوم القيامة، ويمنعه من الأخلاق السيئة لأنه يخشى من عقوبتها،

والإيمان بالملائكة يشعره بالرقابة الدائمة عليه فيضبط سلوكه.

والإيمان بالرسل الكرام عليهم السلام يدعوه إلى التخلق بأخلاقهم؛ لأنهم خير الخلق خُلقاً.

وهكذا تتجاوب العقيدة مع الخلق فيكمل أحدهما الآخر، ويؤدي كل منهما إلى صاحبه.

وبما أن الإيمان يزيد وينقص لدى الإنسان بين مدة وأخرى، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤] فإن هذه الأخلاق تزيد عند زيادة الإيمان وتنقص عند نقصانه، فإذا أراد المسلم أن تتحسَّن أخلاقه فعليه بزيادة إيمانه بالله سبحانه أولاً، ولزيادة الإيمان وسائل عدة: منها التفكُّر في آيات الله الكونية، والتفكُّر في آيات الله الشرعية، والإقبال على الطاعات، وترك الكبائر، وحضور مجالس الذِّكر والعلم، ومدارسة سيرة النبي المصطفى ﷺ، وقراءة سير الصالحين.

وإنما قويت أخلاق السلف الصالح رحمهم الله لقوة إيمانهم بالله واليوم الآخر، كما جاء عن فاطمة بنت عبدالملك بن مروان، امرأة عمر بن عبدالعزيز رحمهما الله أنها دخلت عليه، فإذا هو في مصلاه يده على خده، سائلة دموعه، فقلت: «يا أمير المؤمنين، ألشيء حدث؟ قال: يا فاطمة! إني تقلدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت لي حجة عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت»[١]

(١) رواه الضياء المقدسي بسند صحيح (الجامع الكبير للسيوطي: ٥٤٦/١) وللبزار نحوه بسند صحيح (مجمع

العامل الثاني: العبادات:

وللعبادات تأثير إيجابي على السلوك، يظهر لكل من داوم على أداء العبادات بصورتها الشرعية الصحيحة، فالصلاة تحكم التصرفات، وتهدئ الأعصاب، وتزيد الرقابة الذاتية، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والصلاة الخاشعة ترقق القلب، وتزيد الإيمان، وتورث الإخلاص، وتربط بالآخرة، مما له أثر في تواضع الإنسان ورحمته الآخرين، والزكاة تنمي خلق الرحمة والإحسان والتواضع، وتزيد الروابط الاجتماعية، وتربط بالآخرة، مما له أثر في ضبط سلوك الإنسان ونظرته للآخرين، والصيام يضبط الأعصاب والسلوك، ويزيد الرقابة، ويشعر بالفقراء والمحتاجين الذين لا يجدون ما يأكلون، والحجّ يربي على الصبر والتجرد والتواضع، ويشعر بالمساواة بين المسلمين.

وإذا كانت العبادات لم تأخذ دورها الإيجابي في حياة بعض المسلمين، فتجدهم بالرغم من أدائهم لعباداتهم أصحاب أخلاق سيئة، فذلك لأنهم لم يؤدوها على الوجه المطلوب، فالصلاة مثلاً لم يأتِ الأمر بها في القرآن الكريم إلا مقروناً بإقامتها ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ذلك أن إقامتها تعني أن تؤدَّى كما شُرِعت لرسول الله ﷺ، كاملة خاشعة، لا كما يريد الإنسان أن يصليها حسب هواه، فإذا أُدِّيت كما شرعت أورثت الأثر المطلوب، والمسلمون الذين كانوا يؤدونها على وجهها الصحيح قديماً، والذين يؤدونها في كل وقت كذلك، آثار العبادات عليهم واضحة في حسن أخلاقهم.

وقد قمت بعمل استبانة لمجموعة من الناس، سألتهم فيها عن أثر العبادات عليهم فكان من إجابات بعضهم:

- كنت أغضب عند أي موقف أثناء الصيام، فحاولت أن أتلذذ بالصوم حتى أكون قدوة، فصرت أحاسب نفسي وأحاول التزام سعة الصدر، ونجحت في ذلك.
- بعد أن حافظت على الصلاة جماعة وعلى ذكر الله، أحسست بتحسن كبير في أخلاقي، وصرت أشعر بوازع من نفسي يمنعني من الغيبة وغيرها.

< كنت في خارج المملكة للدراسة ولم أكن متمسكاً بالدين كثيراً، وفي ليلة استعددت لصلاة العشاء، ثم ذكرت حاجة لي عند أحد زملائي فوجدت عنده نساء جميلات، فتذكرت الوضوء والاستعداد للصلاة فحماني الله بذلك من الفاحشة.

< كنت إمام أحد المساجد، فحصل موقف لي مع أحد كبار السنّ، فغضبت، وعندما بدأت صلاة العشاء قرأت قوله سبحانه: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فكظمت غيظي وسامحته وأحسنت إليه.

وهذه نماذج واقعية تؤكد ما سبق، ومن النماذج التاريخية ما رواه جابر قال قال رجل للنبي ﷺ: إن رجلاً يقرأ القرآن الليل كله، فإذا أصبح سرق قال: (ستنهاه قراءته)[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قالوا يارسول الله إن فلاناً يصلي من الليل فإذا أصبح سرق قال: (ستنهاه صلاته)[٢].

وقد جزم النبي ﷺ في القصتين على أثر القراءة والصلاة بسبب أن عباداتهم كانت مؤثرة في سلوكهم، ولو اقترف أحدهم شيئاً من المعاصي أو السلوكيات الخاطئة فسرعان ما يتركها.

ومن هنا كان السلف الصالح يستعينون بالعبادات على أمورهم، قال سبحانه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] أي: استعينوا بالصلاة والصبر الذي قال مجاهد إنه الصوم[٣] على تقويم أخلاقكم، واستعينوا بهما على همومكم، واستعينوا بهما على شؤون حياتكم.

العامل الثالث: الصحبة والصداقة والمخالطة:

لعل من نافلة القول أن الإنسان يتأثر بمن يخالط، فإن هذا المفهوم مستقرٌّ في العقول والأذهان على مرّ العصور، وقد قيل[٤]:

الزوائد: ٢/٢٥٨).

(٢) رواه البيهقي (شعب الإيمان: ٣/١٧٤) وأحمد (٢/٤٤٧) بسند صحيح (مجمع الزوائد: ٢/٢٥٨).

(٣) تفسير القرطبي (١/٣٧٢).

(٤) القائل عدي بن زيد (بهجة المجالس لابن عبدالبر: ٢/٧٠٥).

(١) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه (البخاري: بدء الخلق/خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ٣٢٥-،

openkandil.com

عن المـرء لا تـســأل وأبـصِـر قـريـنــه

فـكـل قــرينٍ بـالـمـقـارن يـقـتـدي

وإضافةً لاستقراره في الأفهام فإن الواقع يصدِّق هذه الحقيقة فتجد الشابّ والشابة والرجل والمرأة يتأثرون بمن يخالطون ويصاحبون، كما قيل: الصاحب ساحب، واكتساب السلوكيات من الأقران والأصحاب أمرٌ فطريّ، بل إن من فطرة الإنسان أن يتطبّع بطباع من يخالط ولو حيواناً، لذا قال ﷺ: (الفخر والخيلاء في الفدّادين أهل الوبر، والسكينة في أهل الغنم)[(١)] ذلك لما يغلب على الإبل من الفخر، وما يغلب على الغنم من البساطة.

ولم يغفل الإسلام ذلك، فأوصى بمجالسة الصالحين وترك مجالسة الطالحين، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨] وقال ﷺ: (مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة)[(٢)].

ولهذا المعنى جعل النبي ﷺ لكل صحابي من المهاجرين أخاً له من الأنصار يعينه ويناصحه.

ومن أمثلة ذلك أن كان سلمان الفارسي من نصيب أبي الدرداء رضي الله عنهما، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء رضي الله عنها متبذِّلة أي لابسة ثياب البذلة وهي المهنة والمراد أنها تاركة للبس ثياب الزينة فقال: «ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليست له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً، فقال سلمان: كل. قال: إني صائم. قال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال سلمان: نم. فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصلّيا. فقال سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حقٍّ حقّه». فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال ﷺ: (صدق سلمان)[(٣)].

مسلم: الإيمان/تفاضل أهل الإيمان – ٥٢).

(٢) متفق عليه عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (البخاري: الذبائح/باب المسك – ٥٢١٤، مسلم: البر والصلة والآداب/استحباب مجالسة الصالحين – ٢٦٢٨).

(٣) رواه البخاري (الأدب/صنع الطعام والتكلف للضيف – ٥٧٨٨) عن أبي جحيفة رضي الله عنه.

(١) رواه الدارمي (١٦٩/١).

وهكذا يستفيد المسلم من مصاحبة أخيه المسلم الناصح له.

ولعل بعض الناس يفضِّل أن يصاحب من لا يناصحه ولا ينتقده، بل يمدحه دائماً ولو بما ليس فيه ولا يذمّه، ويصدِّقه دائماً ولو بغير الحق ولا يكذِّبه؛ لأنه لم يعتد على النقد والنصيحة، أو لأن فيه مرضاً نفسياً كالغرور وهو لا يشعر، ويعتبر هو هذا الصديق صديقاً مثالياً لأنه يحبه بدليل مدحه الكثير له وموافقته المستمرة.

وفي الحقيقة أن هذا الصديق المادح الموافق في جميع الأحوال يضر ولا ينفع؛ لأنه لا يريد الخير لمن يصحبه، بل يريد مصلحة نفسه، ولو كان يريد الخير لصاحبه لناصحه؛ لأنه لا يخلو إنسان من أخطاء، وكفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه، فكيف خلا صاحبه من المعايب؟!

فالمسلم الحق يبحث عمن ينصح له، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي»[1] فانظر كيف جعل عمر النصيحة هدية يهديها له أخوه!

والخلاصة إن للصداقة أثر إيجابي أو سلبي على الإنسان، ولها تأثير على السلوك خيراً أو شراً، فهنيئاً لمن وفقه الله للصحبة الصالحة.

العامل الرابع: التربية:

تأتي التربية لتوجِّه النشء التوجيه الصالح، فتؤثِّر في أخلاقه تأثيراً بالغاً، كما قيل[2]

وينشأ ناشيء الفتيان منا
على ما كان عوَّده أبوه

وما نبغ الفتى بحجىً ولكن
يعوِّده التديُّنَ أقربوه

وأرى أن هذه التربية هي الفاعل الأول في التأثير على أخلاق الصغير، ولكن لم أجعلها أول العوامل؛ لأنها في مرحلةٍ معيَّنة من العمر بخلاف العوامل السابقة فهي تؤثر في جميع مراحل عمر الإنسان.

---

(٢) القائل أبو العلاء المعري (اللزوميات: ٦٠١/٢).

(١) القائل أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ديوانه بشرح الخطيب التبريزي: ٢٠٠/٣) وهذا نص البيت فيه،

والتربية الصالحة لها وسائل: منها: الترغيب والترهيب، والنصيحة والتوجيه، والقدوة، والتربية بالمواقف الحياتية، والتربية بالشدَّة أحياناً، كما قيل[1]:

فقسا لتزدجروا ومن يكُ حازماً
فليقسُ أحياناً وحِيناً يرحمُ

ولأجل أهمية التربية شدَّد الإسلام على اختيار الزوجة الصالحة التي تقوم برعاية الأطفال وتربيتهم التربية الإسلامية، قال ﷺ: (تنكح المرأة لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك)[2].

وغني عن القول أن التربية إنما تؤتي ثمارها إذا كانت غير معارضة بما هو أقوى منها من المؤثرات الأخرى، كما قيل:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدمُ
ولو ألفُ بانٍ خلفهم واحدٌ كفى
فكيف ببانٍ خلفه ألف هادمِ

والتربية الأسرية في أغلب المجتمعات المعاصرة تتعرض لمعوِّقات تؤخر تأثيرها على الطفل والفتى؛ فالانفتاح غير المنضبط على المجتمعات الأخرى، والإعلام الحرّ بغثِّه وسمينه، والتجارب السيئة التي يسمعها الابن من أقرانه، وضعف الرقابة الأسرية نتيجة الإغراق في الأعمال التجارية من قبل الآباء، إضافة لعمل المرأة وتسليم الابن للخدم بما فيهم من عادات وأخلاق غير إسلامية في كثير من الأحيان، كل هذه وغيرها معوِّقات للتربية الصالحة.

فلا بدّ أن تكون التربية متنوعةً محببةً لصيقةً بالطفل، حتى تحميه من المؤثرات المعرقلة لبنائه السويّ، ولا بدّ أن تكون التربية الصالحة خياراً أولياً للأبوين؛ لأنه واجب شرعي أولاً،

وفي الحاشية: في بعض النسخ: على من يرحمُ.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. (البخاري: النكاح/الأكفاء في الدين - ٤٨٠٢، مسلم: النكاح/استحباب نكاح ذات الدين - ١٤٦٦).

(١) متفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما. (البخاري: الجمعة/الجمعة في القرى والمدن - ٨٥٣، مسلم:

obeikandi.com

قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالرجل راعٍ في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها)[١].

ولأنه في مصلحة الأبوين ثانياً، فالابن البارّ والبنت البارَّة سيعينان الأبوين على الدين والدنيا، ويحفظان حقهما في الكبر وبعد الممات، ويتركان الذكر الحسن للأبوين، قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالح يدعو له)[٢].

استثناءات:

هناك العديد من العوامل التي تخرج الإنسان عن اختياره، فتضطره للقيام بأعمال، أو النطق بأقوال لا يرتضيها، ومن قواعد الدين الإسلامي أنه لا يؤاخذ الإنسان إلا بما يصدر عن اختيار منه، لقوله سبحانه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

والأخلاق كذلك قد تصدر من الإنسان من غير تعمُّدٍ لها، ويؤثر فيها بعض العوامل:

العامل الأول: الإكراه: فالمكره الذي يرغم على فعل ما لا يريد، أو قول ما لا يريد لا يؤاخذ شرعاً على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦] وهذه الآية نزلت في قصة عمار بن ياسر رضي الله عنه (حين أكره على النطق بكلمة الكفر، فقالها غير راضٍ بها، فعذره الله تعالى وقال له رسول الله ﷺ: (إن عادوا فعُد)[٣]؛ لأنه يعلم أن قلبه مطمئن بالإيمان.

الإمارة/فضيلة الإمام العادل – ١٨٢٩).

(٢) رواه مسلم (الوصية/ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته – ١٦٣١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه الحاكم (٢/٣٨٩) وصححه عن محمد بن عمار بن ياسر.

(١) رواه الطبراني (المعجم الكبير: ٩٧/٢) عن ثوبان رضي الله عنه (مجمع الزوائد: ٢٥٠/٦)، ورواه ابن ماجة (٦٥٩/١)

obeikandl.com

وقوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقوله ﷺ: «عفي لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[(١)].

ولكن لا بد أن يكون الإكراه ملجِئاً حتى ترتفع المؤاخذة، ومعنى الإلجاء الاضطرار بحيث يترتب على عدم تنفيذ الإكراه ضرر بدنيّ أو نفسيّ أو اجتماعي.

أما إذا كان الأمر الموجَّه للإنسان غير ملجئ، وإنما يترتب عليه بعض الإحراج، فلا يعدّ إكراهاً شرعاً، ومن ثم فإنه يؤاخذ على تنفيذ ما أمر به؛ لأنه نفَّذ الأمر باختياره وإرادته.

وإذا كان المرء غير مؤاخذ على الإكراه، فلا تعدّ تصرفاته التي تصدر منه حال الإكراه سويَّة؛ لأن الأخلاق محل للثواب والعقاب شرعاً، يرتفع بها الإنسان وينخفض عند الله تعالى، فإذا كان غير مؤاخذ في حال الإكراه فليست هي بالأخلاق المعتبرة.

والسبب الآخر: أن الخلق صفة مستقرة في النفس - كما تقدم في تعريفها - والتصرفات التي تصدر حال الإكراه ليست من الصفات المستقرة في النفس.

العامل الثاني: الغضب: فالغضب يخرج الإنسان عن تصرفاته السويَّة، ويحرجه بما يخرج منه من كلمات وتصرفات غير مدروسة، ولم تمرّ على العقل مدة كافية للتأمل فيها.

وتصدر من الإنسان سلوكيات مستغربة حال الغضب الشديد، إذا لم يضبطها فقد تؤدي به إلى التفوُّه بكلمات خطيرة كالكفر والعياذ بالله، أو الإقدام على الاعتداء أو الجريمة، أو فقدان علاقات اجتماعية وثيقة، أو وظيفة، وغير ذلك من الأضرار الكثيرة.

لذا فإن المسلم مُلْزَم أن يضبط أعصابه ويتحكم فيها بحيث لا يقوده الغضب، بل هو يقود نفسه، قال ﷺ (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[(٢)].

وابن حبان (٢٠٢/١٦) والحاكم (٢١٦/٢) وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) متفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه. (البخاري: الأدب/الحذر من الغضب - ٥٧٦٣، مسلم: البر والصلة والآداب/فضل من يملك نفسه عند الغضب - ٢٦٠٩).

(١) ابن القيم/محمد: الفروسية (١٢٩).

وامتلاك زمام النفس أمام رغائبها ونزواتها من أشق الأمور، وفي حال الغضب أكثر مشقة، فمن قدر على ضبط أعصابه، فهو القويّ حقاً، أما من سلَّم للغضب زمامه وتهوَّر فليس بشجاع وإن كان أقوى الناس جسدياً.

ومن هنا فرَّق العلماء بين القوة والشجاعة، فالقوة لا تعني الشجاعة، والعكس، ولكن الشجاعة هي التي يمدح بها الإنسان لا القوة فقط(١).

والله تعالى مدح الكاظمين الغيظ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]

وكظم الغيظ لا ينافيه التعبير عن الغضب بطريقة إيجابية، أي بمناقشة المشكلة، أو إبداء تضايقك مما حصل، لأنه نوع من التنفيس المريح، أما كتم ما تكرهه في نفسك دائماً وتحمّله، فإنه قد يسبب ارتفاع ضغط الدم والكآبة(٢).

وهناك وسائل يستطيع الإنسان بواسطتها تخفيف الغضب، وقبل الوسائل أحب أن أقرر حقيقتين مهمتين:

الأولى: أن مؤجِّج الغضب في نفس الإنسان هو الشيطان؛ لأنه يحب أن يثير نفوس المؤمنين بعضهم على بعض، وهذا ما قاله نبي الله موسى عليه السلام حين غضب وثار وقتل الرجل، ثم قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]، فنسب الغضب وما تبعه إلى عدوِّ الله الشيطان، فدفع الغضب يكون بدفع سببه ومنشئه في النفس، لذا فإن من استولى الشيطان عليه وعلى تصرفاته في حياته، كان أبعد الناس عن الحلم.

الثانية: أن الانتصار للنفس غريزة إنسانية، قد يربطها بعض الناس بالعزة والقوة والكرامة، وقد لا يكون هناك ارتباطٌ بينهما، بل يمكن أن يكون الانتصار للنفس جزءاً من الكبر والغرور، فلا يظن ظانّ أن كل إمضاء للغضب عزة، ولا كل كظم للغيظ مهانة، وسنأتي على تفصيل ذلك في صفة الحلم.

---

(٢) يمكن الرجوع إلى هذا الموقع الالكتروني لمزيد من الدراسة حول الغضب من الناحية النفسية:
www.apa.org/puinfo/anger.html

(١) رواه أبو داود (٢٤٩/٤) عن عطية السعدي رضي الله عنه، وسكت عنه أبوداود فهو حسن عنده. (عون المعبود: ١١٤/٤،

أما الوسائل فهي:

الوسيلة الأولى: الوضوء؛ ذلك أن الوضوء عبادة والغضبان عندما يستشعر أنه شرع في عبادة يذهب غضبه، إضافةً إلى أن الوضوء يسبقه التسمية، والتسمية ذكرٌ لله يبعد الشيطان، إضافةً إلى الوقت الذي يأخذه الإنسان في الوضوء مما يخفف الغضب، إضافةً إلى الماء الذي يبرِّد حرارة الغضب المشتعلة في القلب والجسد، ولأجل هذا كله قال ﷺ: (إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ)(١).

الوسيلة الثانية: ذكر الله؛ ذلك أن الذِّكر يبعد الشيطان، ويقرِّب الملائكة، ويطمئن القلب، مما يهيِّئ الجوّ النفسي لذهاب الغضب، قال تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غضباً قد احمرّ وجهه، فقال ﷺ: (إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه الذي يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد)(٢).

الوسيلة الثالثة: تغيير هيئة الإنسان من الوقوف إلى الجلوس؛ أو الاضطجاع، أو الخروج من المكان، أو صرف وجهه عمن أغضبه؛ لأن الوقوف يشجِّع على الانتقام بسرعة، بخلاف الجلوس، والمكث في المكان يذكِّر الإنسان بكل كلمة قيلت، بخلاف الخروج من المكان حيث يرى مشاهدات أخرى ينشغل بها، لذا قال ﷺ: (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب، وإلا فليضطجع)(٣).

فيض القدير: ١/٥٦٣).

(٢) متفق عليه عن سليمان بن صرد رضي الله عنه. (البخاري: بدء الخلق/صفة إبليس وجنوده – ٣١٠٨، مسلم: البر والصلة والآداب/فضل من يملك نفسه عند الغضب – ٢٦١٠).

(٣) رواه أحمد (١٥٢/٥) وأبوداود (٢٤٩/٤) عن أبي ذر رضي الله عنه، ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد: ٧١/٨).

(١) المتنبي (ديوانه: ٢٣٢).

obeikandl.com

الوسيلة الرابعة: إشغال النفس بملهيات مختلفة؛ كالرياضة، وركوب السيارة، واللعب بالكمبيوتر، أو غيره، والذهاب للسوق، أو التمشية على البحر، وغير ذلك، حيث تنسيه تلك الملهيات كثيراً مما جرى، وتعطيه فرصة للمراجعة.

الوسيلة الخامسة: الاسترخاء والهدوء والتنفس العميق، حيث تخفّ ضربات القلب، وتهدأ الأعصاب.

الوسيلة السادسة: عدم مقابلة الهجوم بهجوم، والتفكير في الانتصار، والرد السريع وبقوة على ما قيل، بل التركيز على التفكير في ما قيل وتوضيح اللبس فيه؛ لأن المقابل قد يكون فهم خطأً أو نقل إليه نقل غير صحيح، كما قيل(١):

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً
وآفته من الفهم السقيم

الوسيلة السابعة: تأجيل البحث في الموضوع، وإعطاء الطرفين فرصة في التفكير، للوصول إلى حل غير ارتجالي.

الوسيلة الثامنة: خفض الصوت؛ لأنه ثبت أن الصوت له أثر كبير في رفع حدة الغضب، وأن الإنسان يتجاوب مع المقابل في مستوى الصوت، فإذا خفضت صوتك فإن المقابل سيتجاوب بخفض صوته وتخفيف غضبه(٢).

ولا يحتج أحد بأن تصرفاته صدرت من غير قصد، وبالتالي لا يؤاخذ بما ينتج عنها، ذلك أنه مطالب بضبط نفسه شرعاً.

وإذا كانت الأخلاق يجب صدورها عن اختيار، ففي حال الغضب الشديد لا يتحقق فيها ذلك في كثيرٍ من الأحيان، فالغضب يؤثر على السلوك الأخلاقي بحيث لا يمكن الاعتماد على تصرفات الغضبان أخلاقياً دائماً.

---

(٢) جبلين/ليس: كيف تتمتع بالثقة والقوة في التعامل مع الناس - ترجمة مكتبة جرير - ط الأولى ١٩٩٩م - فصل: كيفية السيطرة على غضب الآخرين (٦٠).

(١) رواه الحاكم (٣٠٣/٣) وصححه عن معاذ رضي الله عنه.

العامل الثالث: الرياء والمصلحة: فالمرائي يتصنّع السلوك الذي يخدمه في مصلحته ولو كان غير خلق له، فيتصنّع الكرم أو التديُّن أو خدمة الآخرين لينال بذلك مصلحة، فلا تعدّ هذه التصرفات أخلاقاً للشخص؛ لأنها ليست صادرة عن صفة نفسية مستقرة، فهي نوعٌ من الكذب والغشّ وخداع الآخرين، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧ - ٤] وقال ﷺ: (أدنى الرِّياء شرك)[(١)].

فلا يصحّ اعتبار التصرفات المصلحية أخلاقاً، وإلا اختلط الصادق بالكاذب.

وقد يسأل سائل: كيف نستطيع تمييز الصادق من الكاذب، ونحن مأمورون أن نحكم على الشخص بظاهر تصرفاته، والله يتولى السرائر؟

والجواب: إن التمييز في مثل هذه الحالة من الصعوبة بمكان، ويمكن لبعض الناس إتقان التصنُّع بحيث لا يستطيع الشخص العادي تمييز صدقه من كذبه، كما أن رجال الجمارك والأمن يتفاوتون في إدراكهم للمزوِّرين والمهرِّبين، ولكن هناك ثلاث طرق تساعد على التعرف على صدق التصرف من عدمه، هي:

- الرجوع إلى أهل الدراية والخبرة الذين يستطيعون من خلال طول التجربة تمييز التصرفات غير الصادقة.
- ملاحظة السلوك العام للشخص في مدة معيَّنة؛ لأن المتصنِّع لا يستطيع التصنُّع أبد الدهر، ولا لمدة طويلة أيضاً، فلا بدّ أن تظهر منه بعض السلوكيات التي تدلّ على ريائه وتصنُّعه.
- اختبار المتصنّع والمرائي في بعض المواقف التي لا يصبر عليها إلا الصادقون، فالمرائي في العبادات لا يتحمل تعب العبادات كثيراً، والمرائي في الكرم لا يتحمل الإنفاق من ماله الشخصي دائماً، والمرائي في الشجاعة لا يصبر عند الشدائد، فإذا وضع هؤلاء في المحكّ تبين الصادق من الكاذب.

العامل الرابع: الخوف: فالخوف عامل قهري يسيطر على نفسية الإنسان فيلجئه إلى

(١) رواه مسلم (الجهاد/غزوة الأحزاب – ١٧٨٨) عن حذيفة رضي الله عنه.

سلوكيات لا تدل على خلقه، فإن الأمن حاجة فطرية لا يستغني عنها ابن آدم، وللحصول عليها يلجأ الإنسان إلى تصرفات قد لا تكون من أخلاقه وعاداته، وقد قال الله تعالى في شأن غزوة الأحزاب: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب: ١٠] فالصحابة رضي الله عنهم وهم خير الناس خافوا وظنوا بالله الظنون، ولم يؤاخذهم الله على ذلك، بل قال لهم النبي ﷺ: (ألا رجل يأتيني بخبر القوم أشترط له الجنة)[1] مرتين وثلاثاً، فلم يتقدم أحد من شدة الخوف!

فهذا يدل على أن الخوف يصرف الإنسان عن طبيعته وخُلُقه.

(١) المعجم الوسيط. (٥٢٠/١)

obeikandl.com